

السفر إلى المغرب.. قصة عاطفية

السفر

فكرة ينتشى لها العقل المرهق من كثرة البحث عن لحظة سلام ضائع دون جدوى. وفي السفر لذة يهتز لها الجسد ويضطرب، وبها تسعد الروح وترق وتصفو. السفر، كلمة سحرية تنفتح لها خزائن المعرفة والدهشة والأخبار والأسرار، وتتكرر عند قدميها قيود وأغلال تحول دون العقل وما يريد والقلب وما ينهى. السفر قصة عاطفية تبحث عن مسافر عاطفي روحه عطشى لمعانقة كل ما تصادفه من جديد في طبائع البشر وغرائب البلدان وجمال المنظر الطبيعي. السفر قصة حب، مكانها مخيلة المسافر، وزمانها حر طليق، وأبطالها الطبيعة والبلدان والإنسان.

لقد تمكن حب السفر والترحال من قلب المغربي «ابن بطوطة» إمام الرحالة العرب والمسلمين، وسرى في كيانه مسرى الدم في العروق، حتى إن رحلته الأولى استغرقت أكثر من أربع وعشرين سنة، بدأها وهو في شرخ الشباب في الثانية والعشرين من عمره، وأنهاها عائداً إلى مسقط رأسه وهو على أبواب الشيخوخة وقد قارب الخمسين من عمره. فهل تمكن حب السفر والترحال مني أنا أيضاً وسرى في كياني مسرى الدم في العروق؟ أكاد أجزم أن حب السفر والترحال قد تمكن من قلبي وعقلي وروحي، وإلا ما كنت أترك ابني الصغير «عمر» إلى

رحلة سفر بعد أخرى، وأرجئ عمل أى شىء إلى ما بعد العودة من الرحلة والسفر.

ربما لم يكن الكاتب الصحفى الأستاذ «صلاح عطية» أمين عام اتحاد الكتاب الصحفيين العرب على علم بقدر الشوق الذى أحمله فى قلبى إلى رؤية دولة المغرب العربية الشقيقة وإلى زيارتها، عندما حادثنى هاتفياً ليبلغنى دعوته لحضور مؤتمر اتحادات الكتاب السياحيين العرب والمتوسطى والعالمى فى مدينة مراكش المغربية. فهل خاننى صوتى وكشفت نبراته ما بداخلى برغم محاولتى ضبط مشاعر الفرح التى داهمتنى وأنا أشكر له دعوته مؤكداً على قبولها؟

المغرب.. أحببته فى شخص فتاة مربية اسمها «ثرىا». دخلت «ثرىا» قلبى من اللحظة التى وقعت فيها عيناى على وجهها الصبوح الضاحك داخل قاعة تسجيل أسماء الطلبة والطالبات الجدد فى اليوم الأول لدراسة الدبلوم فى الترجمة بمعهد البوليتيكنيك التابع لجامعة لندن فى نهار خريفى من عام ١٩٧٩.

لا أعرف كيف أمكننى التغلب على خجلي وحذري، أنا القادم من صعيد مصر، الذى حذرنا دائماً من بنات القاهرة الجميلات اللاتى يتحدثن اللهجة القاهرية الناعمة. ولدهشتى كانت «ثرىا» المغربية تحدثنى باللهجة القاهرية الناعمة ذاتها وقد اكتسبتها من مشاهدة الأفلام السينمائية المصرية فى دور السينما بالدار البيضاء. كانت «ثرىا» تضحك ضحكة طفولية عذبة تضى بها سماء لندن ذات الغيوم،

وتغنى لى أغنيات «أم كلثوم» فيذهب عنى برد المدينة الكبيرة ويشيع فى جوانحى الدفء.

يقتررب موعدا إقلاعا طائرة الخطوط الملكية المغربية التى ستخلق بنا فى اتجاء المغرب العربى ، لكن الوقت يمضى دون أن يدق جرس هاتف المنزل أو يصدر هاتفى المحمول نغمة فأضغط على مفتاح استقبال المكالمة التى تطمئننى على حصولى على تأشيرة الدخول إلى دولة المغرب الشقيقة وعلى مقعد قد تأكد حجزه على الطائرة.

بعد ظهر اليوم السابق لليوم المحدد للسفر ، يأتينى صوت الزميل الصحفى «محمد صلاح عطية» عبر هاتفى المحمول بطلب محدد وقاطع مفاده أن أسرع بالذهاب إلى منزلى لى أحضر جواز سفرى وأتوجه به على الفور إلى القنصل المغربى الذى ينتظرنى فى مكتبه لى يمنحنى تأشيرة دخول المملكة المغربية. شعرت بالحيرة وسألت: كيف وجواز سفرى فى حوزتك أنت؟ قال موضحا: جواز السفر الذى مئى لى جواز سفرك وإنما هو جواز سفر زوجتك. أدركت خطأى ، فبدلا من أن أسلمهم جواز سفرى اختلط على الأمر وسلمتهم جواز سفر زوجتى.

الجو ممطر والسيارات قابعة فى مكانها فى شوارع القاهرة والجيزة الزلقة ولا تكاد تتحرك إلا ببطء شديد ، وأنا داخل سيارة التاكسى أتلقي مكالمات على هاتفى المحمول من «محمد صلاح عطية» يستعجلنى فيها من أجل ألا أتأخر على القنصل الذى ينتظرنى بمكتبه برغم انتهاء فترة عمله بالقنصلية. مع مضى الوقت المهدور ، ومع غروب شمس النهار

المطير وتكاثف الغيوم الرمادية فى سماء القاهرة والجيزة واقترب حلول الظلام، يداهمنى شعور وأنا بداخل سيارة التاكسى بأن قوة غامضة خفية تحاول منعى من السفر وأنا أحاول التغلب عليها، لكن سيارة التاكسى لا تكاد تتحرك والمسافة بين المهندسين والمهرم تزداد بعداً بفعل تعطل حركة المرور، ولا يمكننى عمل شىء.

وصلت إلى المنزل الساعة السابعة مساءً، وسارعت إلى إخراج جواز سفرى من داخل حقيبة الأوراق والمستندات، لكن صوتاً مثبطاً للهمة ظل يتردد فى داخلى: لن ينتظرنى القنصل حتى هذا الوقت المتأخر، ولن أحصل على التأشيرة، وستقلع الطائرة فى الصباح بدونى، ولن يكون هناك سفر أو رحلة.

أسكت الصوت المثبط للهمة، وسارعت على رغم حلول المساء بإيقاف سيارة تاكسى لتقلنى إلى مقر القنصلية بحى الزمالك. وهناك وجدت أبواب السفارة موصدة ونوافذها غير مضاءة. طلبت رقم الهاتف المحمول الخاص بالسيد القنصل وعرفته بنفسى فأجابنى باقتضاب: إنه قادم من منزله خلال دقائق.

وقفت أنتظر على مسافة بعيدة من باب القنصلية الموصد، ولم يمض وقت طويل حتى تبينت وجود السيد القنصل عند المدخل، فتوجهت إليه وأنا أقدم له اعتذارى الشديد، فحدثنى غاضباً من تأخرى، إلا أننى بذلت ما وسعنى الجهد لكي أطيّب خاطره وأنا أرافقه إلى مكتبه. وخلال الدقائق التى استغرقتها كتابة طلب استخراج تأشيرة الدخول

كان غضب السيد القنصل «محمد الأشهب» قد ذهب، وحل محله خلق حسن وابتسامة كريمة مرحبةً بي في بلده المغرب. شكرته وألقيت عليه السلام مودعاً، وخرجت من باب القنصلية غير مصدق أنني حصلت على التأشيرة قبل ساعات قليلة فقط من موعد إقلاع الطائرة.

في عجلة من أمري بدأت أرتب حقيبة السفر وبعض أوراقى وأنا أستشعر ذات الفرح الذى بداخلى عند كل مرة أكون فيها على سفر، لكن شيئاً رائعاً مشرقاً فى صدرى أقرب إلى الحنين الحزين يببل قلبى ويرطبه ويجعله أكثر وداعة ورقة.

أنظر إلى الصغير «عمر» الذى يمازحنى بأننى مسافر إلى «العصر» وليس إلى «المغرب»، وأسأل السؤال نفسه الذى طرحه «سقراط» منذ زمن بعيد: هل الفعل الذى يتم لك به أن تكون محبوباً يسبق حالة كونك محبوباً؟.. وبناء على ذلك يكون العزيز لدى الآخرين عزيزاً لأنهم أحبه أولاً؟.

أكاد أتبين فى وجه زوجتى شيئاً أقل من الاتهام وأكثر قليلاً من العتاب، وهو أننى نشأت وكبرت فى كنف أم البلاد مصر، فلماذا أنا إذن أبعدو وكأن أم البلاد لا توافقنى فأسافر إلى حيث أشاء وأحب من أرض الله الواسعة؟.

أتوقف عن ترتيب حاجياتى محاولاً إخفاء دمة لم أنجح فى كتمانها، وأنا أتذكر كلمات الشاعر الراحل «كمال عبد الحليم» بعد صدور ثلاثة كتب لى عن رحلاتى إلى أمريكا والسويد ولبنان: سافر إلى الداخل، إلى

أم البلاد مصر، واكتب عن ناسها ومدنها، عندئذ ستحبها كثيراً جداً كما أحبها «حسن فؤاد»، و «فؤاد حداد»، و «نجيب محفوظ».

إلى المغرب العربي في الشمال الأفريقي أسافر من مصر. مسافر أنا إلى الشمال الأفريقي الذي تضرب عروبتة في أعماق التاريخ بخصوصية واضحة وتميز معروف. في الدقائق السابقة على إقلاعى من منزلى متوجهاً إلى مطار القاهرة الدولى، أقرأ للكاتب القومى الدكتور مصطفى الفقى، الذى يقول: «إن الشخصية الإسلامية العربية لدول المغرب أثرت تأثيراً فاعلاً في طبيعة الوجود العربى، وأن دولة المغرب تعتبر خط الدفاع الأول عن العروبة والإسلام أمام أوروبا، فضلاً عن الذكريات الدفينة لسقوط الدولة الإسلامية في الأندلس وخروج العرب منها، ولولا صمود دولة المغرب لانتكست عروبة تلك المنطقة وربما غاب الإسلام عنها أيضاً».

أتابع قراءة الكاتب القومى الدكتور مصطفى الفقى: «إن عناية الحكم فى الرباط بالثقافة العربية والتراث الإسلامى وعلوم الدين الحنيف كان لها أثرها فى تأكيد الهوية العربية الإسلامية لتلك الدولة التى تقع فى أقصى بقعة من المغرب العربى، والتى لا تبتعد عن حدود أوروبا بأكثر من بضعة كيلو مترات، وهو أمر يحمد للأسرة العلوية الحاكمة هناك، بل إن ذلك نهج تاريخى مغربى حرص عليه المرابطون والأدارسة والموحدون وغيرهم ممن حكموا فى تاريخ السلطة المغربية. وهنا لابد من أن نشير إلى أن الإسلام فى شمال أفريقيا لا يبدو ديناً

فقط ولكنه يتحول إلى قومية أيضاً. ولعل ذلك هو الذى منع الخلاف بين العرب والبربر عبر مراحل التاريخ المختلفة فى هذه المنطقة التى تجعل من الإسلام ديناً وقومية، تمثل لهما الحضارة العربية الخلفية الأساسية عبر كل العصور.

فى الطريق إلى المطار، وأنا فى سيارة التاكسى التى يقودها الجار الصديق «أحمد حسن»، أفكر فيما ينتظرنى من جديد ومثير ومدهش، ومن معرفة بالآخر تكشف عن أشياء لم نتعرف عليها من قبل فى أنفسنا، ومن بهجة ارتياح الآفاق المجهولة ومصادفة الاكتشاف.

فى صالة السفر، أتبادل التحية مع الخبير السياحى محمود عبد الوهاب وزوجته وابنتهما الرقيقة منى، والزملاء الصحفيين باهى حمزة، وعبد الناصر أحمد، وشريف صلاح الدين. وفى قاعة المغادرة التى لا يفصلها عن الطائرة التى ستحملنا إلى المغرب سوى حاجز زجاجى، أتطلع إلى الوجوه المسافرة معنا على نفس الطائرة، خاصة وجوه مواطنى ومواطنات المغرب. أكاد أرى وجه «ثريا» فتاة الدار البيضاء المرحلة الضاحكة أبداً فى وجه فتاة مغربية جميلة وحيدة ترتدى نظارة سوداء.